المتصوف الصاحى

محمد إقبال

للدكتور يحيى الخشاب

الرجل الذى يتحدث عنه فلاسفة الشرق والغرب ويجعلونه فى مصاف رجال الفكر الخالدين ، محمد إقبال ، يضم بين جنبيه روح الصوفى الصاحى الذى يبنى فلسفته فى الحياة على إرسال صيحات فكرية صارخة لإيقاظ أمته .

كثير من المفكرين فى القرنين التاسع عشر والعشرين ، من المسلمين ، راعهم السبات العميق الذى يسيطر على الأمة الإسلامية . راعهم الفهم الخاطىء للحياة كما يراها الإسلام الحق . راعهم أن كثيراً من المسلمين يقعد بهم أمل التقدم فى الحياة والنضال فى سبيل « حياة أسعد » ويجدون فى كلمة التصوف ملجأ لهم يركنون إليه فى هدوء ودعة وخضوع . ينظرون إلى الحياة التى يحيونها على أنها فناء لا يستحق أن يلتفت إليه ، فناء يتساوى فيه من جدّ وسعى وأصلح حال نفسه ثم حال أسرته ثم حال أمته بالتالى ومن انزوى فى زاوية من هذا الكون شارد البال مشتت الهوى قاعداً عن الجهاد منتظراً الآخرة التى هى مآل الجميع ، حاسبين أن السؤال فى الآخرة جالب للشر على من سعى وعمل فى الدنيا ، جالب للخير كل الخير على من فرّط فى حق دنياه فى انتظار البشرى فى آخرته .

ومن أبر المفكرين الإسلاميين الذى أرجعوا تخلف أمتهم إلى هذه النظرة الخاطئة فى معنى التصوف شاعر الباكستان محمد إقبال . لذلك تراه يفسر معنى التصوف تفسيراً يرمى به إلى إيضاح السبيل الصحيح فيه والمنبع الحقيقى له .

إنه يرى أن سيرة النبى عليه الصلاة والسلام هى القدوة الأولى التى يؤخذ منها

المعنى الحق للتصوف . فالنبي كان أول المتصوفين ،وأول السالكين والنبي كان المثل الأعلى لمن يريد أن يسلك السلوك الصوفي الحق .

كانت حياته كلها جهاداً لا يعرف القعود وسعياً إلى الأمام لا يعرف التواكل واستمداداً للقوة من الله لا يتسرب إليه وهن ولا يشوبه تواكل ولا يثبطه كسل .

أوحى إليه أن يقوم برسالته فحملها وسط جماعة لم تكن تطيق أن يتعرض لأصنامها أحد فدعا في مثابرة لا تكل إلى تحطيم هذه الأصنام . وتعرض أصحابه ، وكانوا في بادىء الأمر قلة قليلة ، إلى أصناف من الأذى وألوان شتى من العذاب ، واضطر جماعة من هذه القلة القليلة إلى أن يهاجروا من بلادهم في سبيل الاستمساك بدينهم ، واضطر النبي إلى الهجرة كذلك من مكة إلى المدينة . وتكاثر المؤمنون حوله وتكاثر أعداؤه كذلك . وجابه النبي كل كيد لأعدائه وقابل بالحزم والصبر نفاق بعض من اتبعوه وقعود بعض من انضموا إليه . وعمل النبي جاهداً على أن يبث العزم والجلد وروح الجهاد والعمل الصالح المثمر فيمن التفوا مخلصين حوله .

كل شيء حول النبي كان يوحي بأن حركة دائبة وعملا متواصلا وجهاداً وجلداً وعزماً تسير هذه الجماعة التي تلتف حول النبي . كل شيء في هذه الجماعة كان يوحي بأنها جماعة صاحية ، رجالها ونساؤها ، شيوخها وأطفالها .

وهكذا كان النبي نبياً لأمة صاحية واعية عاملة كادحة ساعية خير السعي للحياة .

ومن أجل هذا السعي الدائب والجهاد العامل نجحت الدعوة الإسلامية في زمن النبي ، وأراه ربه آيته الكبرى قبل الموت إذ رأى القلة القليلة التي آمنت بدعوته أول الأمر أمة كبيرة واعية مجاهدة قوية آخر الأمر .

وإقبال حين يتخذ من النبي صلى الله عليه وسلم مثلا أعلى للمسلم المتصوف ومن سيرته الشريفة قدوة للسالكين من المسلمين ، يشيد بسلوك أبي بكر وعمر ويجعل منهما ومن سيرتيهما منهاجاً على كل مسلم أن يأخذ منه ويقتدي به ويعمل قدر جهده كي يكون مثلهما في سلوكه نحو نفسه ونحو أمته .

لقي أبو بكر ، خليفة النبي ، أشد ما يلقى حاكم . لقي حركة الردة . فلم يتوان ولم يستكن ولكنه هب مدافعاً عن رسالة النبي (ص) وكرس في سبيل المحافظة

عليها كل قوته . واستطاع أن يرى بعينيه نتيجة صموده ودفاعه عن الدين فسلم أمانة الحكم إلى صديقه عمر رضى الله عنه ، ليحكم أمة سليمة البنيان .

وعمر بن الخطاب مثل للصوفى الحق عند محمد إقبال . فهو الذى اعتز به الإسلام حين دخل فيه . كان عمر بمثابة فرقة حربية قوية انضمت إلى المعسكر الإسلامى . فطرة سليمة وشخصية قوية وعزيمة صادقة واستقامة حتة لا عوج فيها ولا فتور . وكان عليه أن يقيم الدولة الإسلامية فأقامها على أسس من العدل والحق والقوة .

فلينظر المسلمون إلى هذا « الصوفى » وهو يحكم الأمة التى فتحت بلاد الفرس وبلاد الروم والتى ضمت إليها من البلاد ما يجعلها أغنى أمة فى زمانها . لم يغير من حياته شيئاً . كرس حياته كلها لأمته ولم يلتفت إلى زخرف الدنيا أبداً . اعتز كل الاعتزاز بالجوهر وطرح القشور .

فلينظر المسلمون إليه وهو راقد أمام داره بالمدينة ورسول الروم يسأله أين عمر ؟ وحين يجيبه بأنه يحدث عمر يتلعثم السفير ! إن ملك الروم المغلوب المقهور الذى استفسره يلبس الحرير ويسكن القصور وتحيط ببابه الحاشية حتى ليتعذر على السفراء لقاؤه ، وعمر بن الخطاب فاتح بلاد الفرس والروم ينام على عتبة باب بيته فى دعة وأمن وقوة ولا يحيط نفسه بهذه الأبهة الزائفة التى ألفها الناس فى أمرائهم . وأدرك السفير الرومى أن الذى يضع على كتفيه أمانة حكم الأمة يتخلى عن حب نفسه ويسعى السعى كله لأمته ولأمته وحدها .

فلينظر المسلمون إلى عمر بن الخطاب ، وبيده حكم المسلمين جميعاً ، وهو يبكى لأنه أخطأ فى أمر أصدره . كان قد أمر بأن لا يصرف للطفل من بيت المال إلا بعد فطامه . وذات ليلة استمع إلى طفل يبكى ثم يبكى ثم يبكى فلم يجد عمر بداً من أن يطرق باب البيت الذى يئن الطفل منه سائلا عن سبب بكائه فأجابته أمه بأن عمر لا يعطى للأطفال من بيت المال حتى يفطموا فهى تمنع طفلها من ثديها كى تفطمه كى تطالب بحقه من بيت المال . فلم يكد الحاكم العظيم يستمع لهذا حتى جرى إلى المسجد وهو يبكى فلما سأله الناس ما يبكيك ؟ قال كم قتل عمر من أطفال المسلمين . ثم أمر بأن يرتب للمولود حق فى بيت المال منذ ولادته لا منذ فطامه .

فلينظر المسلمون إلى عمر ، قدوة الصوفية ، كيف كانت الأمة الإسلامية

صغيرة حين خلف أبا بكر وكم كانت سعتها حين مات ؟ وكم كانت حياته مثمرة صاحية واعية عاملة حتى أوصل أمته إلى ما بلغت فى أثناء حكمه !

* * *

يرى إقبال أن يأخذ المتصوفون طرائقهم عند محمد وأبى بكر وعمر . فهم المثل التى تحتذى فى الحياة المتصوفة . وسلوكهم هو السلوك الحق الذى يجب على الصوفى أن ينتهجه إذا أراد حقاً سلوك الطريق السوى .

وإذاً فما شأن الشعراء الذين ينشد أهل التصوف أشعارهم والذين يتخذهم المتصوفة المسلمون أشياخاً لهم ؟

من دعا من هؤلاء الشعراء إلى العمل والجد والكفاح والجهاد كما كان يدعو محمد وأبو بكر وعمر وعلى فهو جدير بأن تقرأ أشعاره وأن يعد من الشيوخ . أما من دعا إلى التواكل والتفانى والقعود فهو مثبط لأمة الإسلام هادم لرسالة نبى الإسلام عامل على إهدار الشريعة المحمدية ، واجب على المسلمين ألا يتلوا أشعاره وألا يلتفتوا إليها .

ولم يغفل إقبال المرأة فى التصوف . فالمرأة هى ربة البيت . فلتكن السيدة فاطمة قدوة للمسلمات . كانت بنتاً هى خير البنات وزوجاً هى خير الزوجات وأماً هى خير الأمهات . ولتنظر المرأة المسلمة اليوم إلى السيدة فاطمة الزهراء ولتكن حياتها مثلا أعلى للمسلمات .

* * *

أما بعد فإن رأى إقبال فى التصوف يراه كل محب لأمته والحق أن رسالة التصوف : أن يعمل الإنسان لآخرته كأنه يموت غدا ؛ وأن يعمل لدنياه كأنه يعيش أبدا . وليكن شعار المتصوفة : عمل صالح ، قول صالح ، فكر صالح .

عمل صالح يصلح به الإنسان حال نفسه وحال أمته .

قول صالح ينتفع به الناس .

فكر صالح يؤدى إلى خير الأمة ولا يؤذى به أحدا ؟